

Azmi Bishara
A Whirlpool of the religion and the state in Israel
Study Series on the Israeli Society, Volume No. 1
Center for Strategic Studies/University of Jordan
Amman, Jordan (arab.), 1996

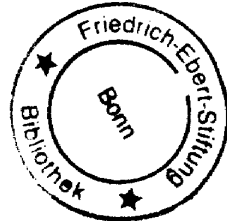
سلسلة دراسات في المجتمع الإسرائيلي



دوامة الدين والدولة في إسرائيل

عزمي بشارة

A 97 - 02083



الكاتب في سطور:

ولد عزمي بشارة في الناصرة عام ١٩٥٦. ويحمل شهادة الدكتوراة في الفلسفة من جامعة هومبولت في برلين. عمل منذ عام ١٩٨٩ استاذاً للفلسفة في جامعة بيرزيت. كما يشغل منصب منسق لمشروع بحثي بعنوان: "أوروبا في الشرق الأوسط: مفاهيم سياسية رئيسة في حوار الثقافة"، وباحثاً في معهد فان لير- القدس. وقد شغل مناصب عديدة في السابق منها رئيس دائرة الدراسات الثقافية في جامعة بيرزيت منذ عام ١٩٨٩ وحتى عام ١٩٩٠، وباحثاً في دائرة التاريخ الألماني في جامعة تل أبيب، عضو الفريق البحثي لمكتبة وينر "Wiener" حول العلمانية منذ عام ١٩٨٦ وحتى عام ١٩٨٧. له منشورات عديدة في: نقد المركزية الأوروبية، وعلاقة الدين والدولة في الإسلام واليهودية، وقضايا الصدام العربي الإسرائيلي.

وحدة الدراسات الإسرائيلية
مركز الدراسات الاستراتيجية
الجامعة الأردنية
١٩٩٦

جميع الحقوق محفوظة

رقم التصنيف:	٢٩٦
المؤلف ومن هو في حكمه:	عزمي بشارة
عنوان المصنف:	دوامة الدين والدولة في إسرائيل
رؤوس الموضوعات:	الديانات، الدين اليهودي
رقم الإيداع:	(١٩٩٦/٣/٣٣٨)
بيانات النشر:	عمّان، مركز الدراسات الاستراتيجية
تم إعداد بيانات فهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية	

المحتويات

	تقديم
١	مدخل
٥	الخلافاة الأساسية
٩	الحجج اليهودية والصهيونية
١٣	المشاركة في الحياة السياسية
١٩	ظهور التطابق بين "ارض اسرائيل" و "دولة اسرائيل"
٢٥	الصهيونية الدينية والحركات السلفية
٢٩	التدين والصهيونية
٣١	الأيدولوجيا الدينية الغيبية و "أرض اسرائيل"
٣٥	الخاتمة

إن وجهات النظر الواردة في هذه الدراسة لا تعكس بالضرورة مواقف مركز الدراسات الاستراتيجية، وإنما هي تعبير عن وجهة نظر الكاتب. وأن المركز لم يجر أي تعديل على المصطلحات أو أسماء المواقع التي تختلف تسميتها بالعربية عن ما هو متداول في إسرائيل؛ لأن ذلك يشكل جزءاً من عملية الفهم المتكامل لموضوع هذه الدراسة.

تقديم

انطلاقاً من حرص مركز الدراسات الاستراتيجية بالجامعة الأردنية على إجراء الدراسات الموضوعية المعمقة التي تعرف بالمجتمع الإسرائيلي، وفنائه الاجتماعية المختلفة، وأحزابه السياسية المتعددة، وبناء الاقتصادية، جاء تأسيس وحدة الدراسات الإسرائيلية في المركز، التي تعمل -على الرغم من حداثة تكوينها- جاهدة على عقد الندوات ونشر الدراسات والأبحاث والتقارير، بهدف تحقيق الفائدة المرجوة من تأسيسها، ووضع نتائج هذه الجهود في متناول المتخصصين وأصحاب القرار للاستفادة منها والاسترشاد بها.

لقد كانت معظم الدراسات التي أجريت عن إسرائيل والصهيونية واليهود في الماضي، دراسات يسيطر عليها -في الغالب- الخطاب الأيديولوجي السائد، وبالتالي فإنها كانت دراسات غير متخصصة. وقد ساهم هذا في تعميم "حقائق" حول المجتمع الإسرائيلي عمقت من الفجوة العلمية، وأدت -إلى حد كبير- إلى عدم تحديد الرؤى الموضوعية للتعامل مع إسرائيل، وغياب الفهم الحقيقي لآليات حركة المجتمع الإسرائيلي في الجوانب المختلفة. فعدم القبول الشرعي لإسرائيل روج لفرضية أن إسرائيل كيان يفتقد مقومات الوجود، وأنه مصطنع وزائل، وعليه لا ضرورة لدراسته، وربما نتيجة لذلك جاء التركيز غير المتوازن على دراسة علاقة إسرائيل بالعرب من خلال سياستها الخارجية، وبالذات علاقتها "بالقوى الامبريالية"، لأنها تشكل -في الأساس- "رأس حربة للامبريالية" في المنطقة.

ولقد طرأ مؤخراً بعض التحول في هذه التوجهات، وربما يعود هذا إلى الهزائم المتكررة للعرب، وميل ميزان القوى لصالح إسرائيل، إذ برزت رؤى

مدخل

توجد عدة تعريفات لمفهوم "العلمنة" باعتبارها عملية اجتماعية تحديئية. وتنطلق هذه التعريفات من اعتبار أوروبا العصر الحديث نموذجاً كلاسيكياً لعملية العلمنة. هناك توجهان أساسيان يتخللان معظم التعريفات: ينطلق الأول من العلمنة التي تمت في المؤسسة الكنسية ذاتها وفي الأديرة، وتجلت بالتوجه والاعتناء أكثر فأكثر بقضايا الدنيا وهذا العالم بدلاً من قضايا السماء أو مملكة الله. أما التوجه الثاني، فينطلق من العمليات الاجتماعية والاقتصادية التي رافقت عملية فصل الدين عن الدولة والعلم والاقتصاد... الخ، فصلاً مؤسساتياً وحقوقياً وحتى قيمياً. وقد رافقت عملية فصل الدين عن الدولة عملية لا تقل عنها أهمية هي فصل الدين عن الأمة مع نشوء الدولة القومية التي لا تفصل ما بين الأمة والمواطنة - فالأمة الحديثة هي أمة لدولة لا مجموعة إثنية. وقد توجت هذه التطورات التاريخية بمنظومات ومذاهب فلسفية أفردت للدين موضعاً في مجال الحسم الخلفي الفردي أو الخيار الإيماني الخاص، أي نقلت الدين من المجال العام إلى المجال الخاص.

وإذا انطلقنا من التعريف الثاني لعملية العلمنة، وهو الموضوع الذي يثير نقاشاً وحواراً في العالم العربي وفي إسرائيل حالياً، فنصل إلى نتائج نظرية مذهلة لعملية العلمنة إذا ما قمنا برسم نموذج نظري خالص لهذه العملية. فإذا تصورنا فصلاً نظرياً مطلقاً بين الدولة (عالم السياسة) وبين الدين نجد أنه، وعلى هامش كل من العالمين، ينشأ توتر وصراع.

جديدة محدودة تفهم - وبوعي - مدى ما حققه الإسرائيليون من إنجازات في المجالات كافة.

وفي هذا الإطار، وضمن هذه الرؤى الجديدة، تأتي سلسلة الإصدارات حول المجتمع الإسرائيلي التي تشكل بداية جهد متواضع من مركز الدراسات الاستراتيجية في الجامعة الأردنية لتعريف القارئ العربي المتخصص بطرائق تفكير الإسرائيليين في المجالات كافة، ومحاولة جادة تتجاوز الأيديولوجيات لمعرفة كيف ينظر الإسرائيليون إلى مشكلاتهم وقضاياهم المختلفة، وعلاقتهم مع العالم الخارجي، وبخاصة مع العالم العربي، وما هو الدور الذي يريدونه لأنفسهم في المنطقة، هذا الدور الذي قد تساعدهم معرفته في التأثير على أدوار الآخرين من حولهم أيضاً.

وتأتي هذه السلسلة أيضاً باعتبارها محاولة جادة لتبديد الحيرة عن تساؤل مهم، وهو: ما الذي يريده الإسرائيليون من العرب؟ وذلك بهدف تجاوز التخبط، وفقدان الاتزان، وردود الفعل الآتية غير المدروسة في التعامل مع إسرائيل، وصولاً إلى بلورة رؤى موضوعية علمية تساعد في إيجاد سياسات لا تقلل من المخاطر الخارجية فحسب، بل تسهم أيضاً في تفعيل عوامل النهوض الداخلي.

مركز الدراسات الاستراتيجية

فعالم الدين الذي افرد له مجال "الخاص" هو عالم اجتماعي بحسب كل تعريف للدين. وحسبه في المجال الفردي يخلق توتراً للعودة والالتحام بالسياسة، من أجل إعادة الوحدة بين الدين والدولة، وهذا هو موطن الحركات الدينية السلفية. على هامش الدين ينشأ إذا الدين السياسي، العمل في السياسة باسم الدين، والتوق إلى العودة إلى الشريعة أو التلمود... إلخ. وقد تنشأ أوضاع تلتحم فيها الاقلية الدينية السياسية بما يسمى الدين الشعبي، أو إيمان ومعتقدات عامة الناس، ليتحول إلى خطر فعلي يهدد باقتحام السلطة السياسية. لكن من أجل ذلك يجب أن تتوفر أوضاع تاريخية لا نستطيع خوضها في هذه المقدمة النظرية.

وفي عالم السياسة النقي من الدين، يولد توتر وصراع في الهامش ناجمان عن التوق إلى "المقدس" (وهو جوهر التدين) في مجالات حياتية أصبحت علمانية وانفصلت عن الدين. فعلى هامش الحركة القومية، تنشأ مقدسات علمانية من نوع جديد مثل "الأمة" و"الوطن"... إلخ. وعلى هامش الحركة الاشتراكية العلمانية، تنشأ مقدسات أخرى مثل "الحزب القائد". وقد تنشأ أوضاع تاريخية تمكن هذه العلمانية الغيبية من السيطرة إلى فترة من الزمن، أو محاولة إيجاد بدائل من الدين الذي انحسر في المجال الخاص الفردي. (ولم تحقق أية حركة نجاحاً يذكر في عملية التحول إلى دين بديل).

ما أريد الوصول إليه هو أمر واحد بسيط: ان الحركات السلفية أو التدين السياسي والحركات العلمانية الغيبية، هي نتاج لعملية واحدة هي عملية العلمنة، لكنها تستخدم مفاهيم ومصطلحات مناقضة. فالأولى تحاول إخضاع السياسة للمفاهيم والقيم الدينية، بينما تحاول الثانية ان تعطي مفاهيم أرضية دنيوية طابعا مقدسا. والصراع ما بين السلفية الاسلامية والقومية العربية مثال

لذلك؛ فقد نشأ مفهوم الامة العربية اصلا من رحم الصراع مع مفهوم الامة الاسلامية. ولا تسمح السلفية الدينية بتقديس مصطلحات دنيوية وتعتبر هذا التقديس ضربا من ضروب الزندقة والاحاد.

من الممكن، طبعاً، إيراد أمثلة عديدة من التاريخ الحديث، لتحالف قوى وطنية محافظة في دول رأسمالية متطورة، مع المؤسسة الدينية أو مع التقاليد والتراث الديني، وخصوصاً في تلك الدول التي تأسست فيها كنيسة وطنية مثل ألمانيا، أو حيث تقع دول معينة ينتمي أغلب سكانها إلى طائفة محددة في محيط يدين بديانة أخرى (بولونيا الكاثوليكية)، أو حيث جرى الصراع لتأسيس وبناء صرح أمة من الأمم مع قوة أجنبية تنتمي إلى دين آخر. ويجب أن تؤخذ كل هذه الحالات بعين الاعتبار عند الحديث عن اختلاط الدين الشعبي بالوعي القومي الشعبي، أو عند الحديث عن تحالف التيارات اليمينية المحافظة مع التقاليد الدينية، وخصوصاً في الدول الرأسمالية المتطورة.

لكن التيارات السلفية تختلف عن المؤسسة الدينية اختلافاً جوهرياً، لأنها نتاج لعملية العلمنة. والسلفية هي تيار ديني سياسي حديث يدعو إلى إعادة دمج الدولة في الدين، أي ان السلفية تفترض انفصالهما التاريخي في الوعي على الأقل. كما يجب تمييز التيارات السياسية العلمانية التي ترفع قيماً دنيوية إلى درجة التقديس، مثل الدم والأرض والبطل والقائد والحزب... إلخ، من التيارات اليمينية المحافظة التي تضع نصب أعينها قضية الحفاظ على الهرمية الاجتماعية. وقد تعتبر التيارات اليمينية المحافظة الحركات الفاشية، مثلاً تهديداً للهرمية الاجتماعية، وقد تحالف معها من منطلق براغماتي.

الخلافاً الأساسية

يدهش المراقب الموضوعي عندما تصل إلى مسامعه أنباء القضايا غير المحلولة بين الدين والدولة في إسرائيل. فقانون العودة، مثلاً، ما زال يفقر إلى تعريف "من هو اليهودي؟". وسؤال من هو اليهودي سؤال ديني في نهاية الامر، والعوائق امام حسمه عوائق دينية. فليس هناك خلاف في شأن كون اليهودي هو المولود لأم يهودية، ولكن هنالك فارق بين المتدينين الارثوذكس وبين الاتجاهين المحافظ (Conservative) والاصلاحي (Reformist) بشأن عملية التهويد، أي إذا تمت بحسب أصول الشريعة ام لا^(١). والسؤال سؤال ديني فقهي مع ان الاجابة عليه قد تعني منح المواطنة لليهودي "القادم الجديد" او عدم منحه إياها.

وقد ثار النقاش نفسه، وبحدة بالغة، في الصحافة الإسرائيلية عند محاولة المؤسسات الدينية في إسرائيل، وخصوصاً "الحاخام الأكبر" (رابانوث راشيت) التشكيك في يهودية عدد كبير من المهاجرين اليهود السوفيات إلى إسرائيل في موجة الهجرة الجماهيرية الأخيرة^(٢).

في إسرائيل، خلافاً للدول القومية الاخرى (nation state)، لا تتطابق الامة مع المواطنة؛ فليس كل مواطن إسرائيلي جزءاً من "الامة الإسرائيلية" التي لا تعترف المؤسسة الرسمية اصلاً بوجودها. بموجب الموقف الرسمي فان

(١) انظر تلخيص القاضي السابق في المحكمة العليا الاسرائيلية، حاييم كوهين، لهذه القضية في مقالة "من هو اليهودي" مجلة "يهودت هومانستيت حيلونيت"، العدد الاول، حزيران/يونيو ١٩٨٠، ص ٣.

(٢) انظر مثلاً: "هآرتس" ١٩٩٠/١/٨: المصدر نفسه، ١٩٩٠/٣/١٣.

على أي حال، فان الفرضية التي أطرحها تتناول العلاقة بين التوجهات القومية او الطبقية المتطرفة التي تقع على هامش السياسة العلمانية او الدولة التي تعلمت، وبين التوجهات السلفية على هامش الدين الذي فقد الدولة والتي تحاول العودة إلى دمج الدين في الدولة.

والمثل الوحيد الذي عثرت عليه لتوجهات قومية متطرفة تلتقي بل وتتطابق في بعض الحالات مع اتجاهات دينية سلفية متطرفة مستخدمة المصطلحات والمفاهيم والتعابير نفسها، هو المثل الاسرائيلي، واستنتاجي الوحيد الممكن هو انه لم تجر في الحركة الصهيونية وفي إسرائيل، اصلاً، عملية علمنة في جوهر المفاهيم وإنما في مظاهرها فقط.

هذا لا يعني ان الصراع الذي جرى مع بدايات الصهيونية، والذي ما زلنا نشهد تشعباته حتى الآن بين الصهيونية والمتدينين اليهود، وهم أو خداع بل كان صراعاً حقيقياً ومؤلماً. لكن ما اود قوله هو ان هذا الصراع لم يقدر حتى او في اوج استعاره، إلى الفصل بين الأمة والدين او بين الدين والدولة.

الكتيرة السكان في إسرائيل هم يهود ينتمون إلى امة عالمية هي الأمة اليهودية. والنقاش الجاري في إسرائيل حاليا هو فقط بشأن ما إذا كانت إسرائيل دولة اليهود ام تعدو ذلك لتكون دولة يهودية، أي دولة ذات طابع ديني يهودي. لكن كلا الطرفين المتناقشين في إسرائيل لا يتجاوز عمليا التطابق بين الأمة والطائفة، او اعتبار الانتماء إلى الطائفة اليهودية انتماء إلى الامة اليهودية.

وتحتد النقاشات في إسرائيل بشأن موضوعات حقوقية عديدة تتعلق بعلاقة الدين بالدولة، مثل: عدم اعتراف الدولة بالزواج العلماني، وتدخل المؤسسة الدينية في العديد من جوانب "الأحوال الشخصية"، إلى جانب تقييد حركة المواصلات في شوارع معينة يسكنها المتدينون أيام السبت، ومنع استيراد لحم الخنزير، وتدخل المؤسسة الدينية في منح لقب "كوشير" للمطاعم التي تقدم طعامها وفق أصول الشريعة. وغالبا ما يأخذ هذا النقاش في إسرائيل شكل صراع ضد ما يسمى "فرض الدين على الدولة" - وخصوصا مع ازدياد وزن الأحزاب الدينية الناجم عن قدرتها على فرض شروط خلال المفاوضات الحكومية، مستغلة انقسام الكنيسة (البرلمان الإسرائيلي) إلى قسمين متعادلين بين حزب الليكود وحلفائه اليمينيين من جهة، وبين حزب العمل والأحزاب الواقعة إلى يساره من جهة أخرى. ما يلفت النظر، أيضا، رفع القوى العلمانية الصهيونية في تظاهراتها وأعمالها الاحتجاجية الاخرى شعارات تدعو إلى تجنيد طلاب المدارس الدينية (اليشيفوت) للجيش الإسرائيلي^(٣). أي ان النزعة إلى العسكرية وطرح الجيش كقيمة عليا اخترقا صفوف العلمانيين تماما، مما جعلها

(٣) "هآرتس" ١٩٨٩/٦/٢؛ المصدر نفسه، ١٩٨٩/٦/٩.

يقدر تقرير مراقب الدولة لسنة ١٩٨٩ عدد طلاب المدارس الدينية المحررين من الخدمة في الجيش بـ ١٨,٣٥٠، في حين كان عددهم ٤٧٠٠ سنة ١٩٦٨.

الحجة الاساسية الموجهة ضد المتدينين الارثوذكس اليهود. ان خدمة طلاب المدارس الدينية في الجيش الإسرائيلي، او عدم خدمتهم، لا يقدمان في الواقع حلا لمعضلة العلاقة بين الدين والدولة في إسرائيل؛ فاذا وافقت اقسام من الأحزاب الدينية الارثوذكسية على الخدمة في الجيش فربما تصبح إسرائيل اكثر دينية لا اقل دينية. ويبدو أن هناك نزعة لدى الأحزاب الدينية الارثوذكسية غير الصهيونية الى التكيف إزاء الرأي العام في الدولة، كما تفعل ذلك في أية دولة اخرى يعتبرها اليهود منفي انطلاقا من مقولة في التلمود اليهودي "حكم صاحب الملك يعتبر حكما" (دينا ديملوكتنا دينا) - أي ان الدين اليهودي يفرد سلطة للدولة في المنفى. فهل تعتبر إسرائيل منفي بالنسبة إلى هذه الاحزاب والتيارات الدينية، وما الفارق بينها وبين التيارات الدينية الصهيونية؟ هذا هو السؤال الذي يحير العديد من الباحثين، وسأحاول الاجابة عليه في الفقرة التالية.

الحجج اليهودية والصهيونية

عندما ظهرت الصهيونية السياسية في أوروبا تبين أن هنالك معارضة شديدة لها في أوساط المتدينين اليهود. ولن أعالج في هذا المقال دواعي نشوء الحركة الصهيونية وأسبابه وظروفه، إلا أنه لا بد من التعرض لبعض المبادئ الأساسية للحركة الصهيونية التي أدت إلى هذا النفور الشديد لدى المتدينين اليهود.

(أ) هوجمت الصهيونية بشدة لأنها وضعت نصب أعينها إحلال الفكرة القومية عاملاً موحداً لليهود أينما كانوا، بدلاً من تنفيذ الفرائض الدينية والتزام تعاليم التوراة التي حافظت على تميز ووجود اليهود بين باقي الأمم كما يدعي المتدينون. فالصهيونية تحول اليهود إلى أمة كباقي الأمم، وتشجعهم على التخلي عن الواجبات الدينية.

وهكذا يقول الحاخام حاييم هاليفي من بريسك: "بالنسبة إلى طائفة الصهيونيين فقد تنظمت الآن بقوة، وأعلنت أن هدفها اقتلاع أسس ديانتنا... على شعب إسرائيل ألا ينضم إلى مغامرة تهدد بتدمير الدين..."^(٤) ويقول الحاخام غور "على اليهودي ألا ينضم إلى الاشرار - أولئك هم الصهاينة."^(٥)

(٤) اقتباس من كتاب ش. ز. لنداو، ي. راينوفتش (محرران)، "الصهيونية الدينية" (القدس، ١٩٧٧)، ص ٥٥.

(٥) مقتبس من:

A. Ravitzky, "Exile in the Holy Land: The Dilemma of Haredi Jewry," in Studies in Contemporary Jewry (an annual) 5 (1989), p. 93.

الشخصان المذكوران اعلاه مؤسسان للمدارس الدينية الليتوانية التي يقودها في إسرائيل حاليا الحاخام شاخ. ويتشعب عن هذه الحجة، أي علمانية الصهيونية في ذلك الحين وعلمانية دولة إسرائيل فيما بعد، العديد من المواقف التي بدأت بمعارضة الصهيونية لأنها تهدف إلى تحويل اليهود إلى أمة كباقي الأمم، وانتهت بالموافقة على اعتبار إسرائيل كباقي الدول من دون قبول الصهيونية. وسرى كيف تطور هذا الموقف فيما بعد.

(ب) الحجة الثيولوجية المهمة والتي بدأت التيارات الدينية غير الصهيونية كلها بالتلويح بها انتهت في هذه الايام لتكون حجة الاقلية بين المتدينين اليهود، ويتبناها حاليا فقط "ناتوري كارتا" (حماة الأسوار) و"أتباع ساتمر" (Satmar Hassidism). وتتلخص هذه الحجة باعتبار الصهيونية حركة مسيانية كاذبة تحاول تعجيل النهاية بوسائل دينوية. فخلاص اليهود بقدوم المسيا وجمع الشتات... إلخ هو عملية سماوية لا أرضية، ولا تتم ضمن حركة التاريخ الفعلية وإنما تأتي نفيًا لحركة التاريخ الواقعية. هذه الحجة إذا تهم الصهيونية بالنبوة الكاذبة وبالتدخل في شؤون السماء، فجمع الشتات هو من بشائر قدوم المسيا الذي سيقم مملكة إسرائيل من جديد.

لقد تبنت هذا الموقف كل التيارات غير الصهيونية في البداية، وحتى تيار الحاخام شنيرسون أو "الحاخام من لوبافتش" كما يسمى عادة هذا التيار المتحالف حاليا مع تيار أرض إسرائيل الكبرى. فمع بدايات الحركة الصهيونية سجلت لشينيرسون تصريحات مثل: "أن من يتمسك بالتوراة وبالوصايا لا يمكن أن يقبل هذا الشكل من مغادرة المهجر بالقوة والخلوص بقوة الذات. أن هذا

السلوك يتعارض مع عقيدة إسرائيل وطموحاتها - أنا نتمنى وننتظر الخلاص بقدوم المسيا." (١)

(ج) الصهيونية "سراب وأوهام": فهي تعتمد على حسن نية الأمم ومساعدتها لليهود. ولا تتلاءم طبيعة الشعب اليهودي مع النشاط السياسي الديني الذي يميز الشعوب الأخرى - باختصار الصهيونية غير واقعية ولن تتحقق. هذه الحجة ضعفت بالتدريج مع بوادر نجاح المشروع الصهيوني ووجدت بلفور ثم قرار التقسيم. وعمليا، وفي يومنا هذا، تتمسك الاتجاهات الدينية الأرثوذكسية بالحجة الأولى، أما الحجة الثانية فهي من نصيب المغالين في العداء للصهيونية من منطلقات مسيانية.

(١) Ibid

المشاركة في الحياة السياسية

طراً على موقف اليهودية التقليدية من المشروع الصهيوني تحول متدرج، تأثر بالأحداث السياسية قبل قيام إسرائيل. وكانت الكارثة التي حلت بيهود شرق أوروبا ومركزها من أهم هذه التحولات، إذ نجم عنها تحطيم وبعثرة المراكز الدينية القوية والأساسية في أوروبا الشرقية. وانتقل مركز الثقل إلى المراكز الدينية في إسرائيل والولايات المتحدة. ومع ان كثرة التيارات التقليدية حافظت على موقف غير صهيوني إلا أنها انتقلت بالتدريج إلى التعايش مع الصهيونية، بل التحالف معها بعد قيام الدولة اليهودية. وذلك باعتبار إسرائيل واقعا تاريخيا، وكل واقع تاريخي غير مسياني هو منفي بالنسبة إلى اليهودية التقليدية: "الشعب اليهودي ما زال في المنفى حتى ظهور المخلص، وحتى لو كان مكان إقامته دولة إسرائيل فهي ليست خلاصا ولا بداية الخلاص". (٧) هذا هو موقف الحاخام اليعيزر مناحم شاخ، الذي يخضع لتوجيهاته حزبان دينيان في إسرائيل حاليا. تغير هذا الوضع بالطبع بعد الخلافات التي وقعت بين الراب شاخ والراب عوباديا يوسف الزعيم الروحي لحركة شاس. وبقي حزب "ديغل هتورا" (علم التوراة) فقط يخضع بشكل مطلق للراب شاخ. وقد شكل هذا الحزب قائمة للإنتخابات البرلمانية الاخيرة عام ١٩٩٢ توحدت مع حزب "اغودات يسرائيل"، وحصلت هذه القائمة المشتركة على ٤ مقاعد في حين حصلت شاس وحدها على ٦ مقاعد.

(٧) الحاخام ا.م. شاخ "رسائل ومقالات"، (بني براك، ١٩٨٠)، ص ٩.

سنحاول تصوير التطور التاريخي في مواقف التيارات الدينية غير الصهيونية بمتابعة التحول في مواقف حزب أغودات إسرائيل الذي أقيم سنة ١٩١٢ لتوحيد التيارات الدينية المعادية للصهيونية.

شكل وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧ كما يبدو، نقطة التحول التاريخية؛ فقد فر وعد بلفور بأنه نوع من أنواع العناية الالهية، بل اعتبره البعض معجزة وإشارة إلى إرادة الخالق التي تتجلى في تعامل "الأمم" (غير اليهود) مع اليهود. ومع الانجازات التي حققها الاستيطان اليهودي في فلسطين في الثلاثينات، ومشروع تقسيم لجنة بيل (تشرين الاول/أكتوبر ١٩٣٧)، تبلور موقف يدعو إلى تأييد إقامة دولة إسرائيل من منطلق عدم البقاء على هامش السياسة اليهودية، ومن أجل التفاعل معها والتأثير فيها. غير أن الاغلبية اصدرت في النهاية قرارا يلتزم الموقف التقليدي، لكن يعتمد في الأساس، في رفضه للدولة اليهودية، على طابعها العلماني المؤكد: "أغودات إسرائيل في أرض إسرائيل ترفض رفضا باتا كل محاولة لنزع القدسية عن أرض إسرائيل، وتعتبر اقتراح إقامة دولة يهودية علمانية في فلسطين تهديدا للمهمة السامية للشعب اليهودي كأمة مقدسة." (٨) لكن هذا الموقف يحمل في طياته إمكانات الحلول الوسط. وبدأ موقف أغودات بالتطور فعلا في اتجاه التفاوض مع قيادة الحركة الصهيونية، ومفاوضتها بشأن ضمانات تقدمها هذه الدولة لاحترام الشريعة اليهودية. وعشية قرار التقسيم توصل هذا الحزب إلى موقف مفاده أنه لا

(٨) مقتبس من:

M. Friedman, "Israel as a Theological Dilemma," in Kimmerling Baruch (ed.), The Israeli State and Society (State University of New York Press, 1989), p. 175.

يستطيع معارضة قيام الدولة علنا، كما لا يستطيع دعم قيامها لأنها ستكون دولة علمانية (٩).

انتصرت في هذه النقاشات مواقف الحاخام يتسحاق ليفي، قائد أغودات إسرائيل في فلسطين، والذي شارك فيما بعد في اللجنة الأمنية التابعة للدولة اليهودية وفي الحكومة المؤقتة الإسرائيلية بعد إعلان قيام الدولة، على مواقف القائد التاريخي لاغودات إسرائيل الحاخام الحانان فاسرمان الذي اعتبر إسرائيل منفى مزدوجا (١٠).

بدأت المفاوضات بين أغودات إسرائيل بوصفه حزبا سياسيا دينيا، وبين القيادة العلمانية للحركة الصهيونية منذ تلك الفترة، وشكلت هذه المفاوضات نقطة البداية لعلاقة معقدة استمرت منذ قيام الدولة بين القيادة الصهيونية العلمانية وبين الاحزاب الدينية الارثوذكسية في إسرائيل. وتمحورت المفاوضات في تلك الفترة حول الامور التالية: ١) قوانين الاحوال الشخصية؛ ٢) السبت؛ ٣) قوانين تتعلق بالغذاء "الكوشير"؛ ٤) أوتونوميا للتعليم الديني اليهودي - أي عدم جعل التعليم العلماني إلزاميا؛ ٥) حرية العبادة. اود ان اذكر ان هذه المفاوضات جرت قبل قيام الدولة. ولم يتعهد بن - غوريون إلا بحرية العبادة وعدم الاجبار على التعليم العلماني.

وعشية قرار التقسيم بدأت أصوات مؤيدة لقيام إسرائيل ترتفع أكثر فأكثر داخل "الاغوداة"، مفسرة قرارات الامم المتحدة وتعاطف المجتمع الدولي مع اليهود بأنها من مظاهر العناية الالهية. وفي الحقيقة أن الاغوداة، كحزب سياسي، شعر بالعزلة التامة في السياسة اليهودية في تلك الفترة وأراد أن

(٩) Ibid., p. 184

(١٠) الحاخام الحانان فاسرمان، "مجموعة مقالات" (تل أبيب، ١٩٦٣)، ص ٩٢.

بؤمن مصالحه، وذلك بالوجود والتأثير في مراكز صنع القرار السياسي. وهكذا يقول الحاخام ليفي، وزير الشؤون الاجتماعية، في اجتماعه إلى مجلس كبار التوراة بتاريخ ١٦ شباط/فبراير ١٩٤٩: "لا شك في ان يد الله تحرك كل شيء... نحن نواجه تناقضات حادة. لقد كان موقف أغودات إسرائيل الاولي معارضة الحياة العامة التي لا تتفق مع التوراة. والآن تشكل دولة إسرائيل استمرارا للصهيونية وتحقيقا لتطلعاتها. من الناحية الاخرى، لوقام مجلس كبار التوراة واليهودية الارثوذكسية، بصورة عامة بالتدخل في هذه القضايا منذ بدايتها لما كنا اقلية ولكانت الامور تختلف عما نحن عليه الآن..."^(١١)

غير ان مواقف ليفين عكست فقط مزاجا مؤقتا داخل أغودات إسرائيل. وبدأ التوجه العام في اوساط اليهودية الارثوذكسية ينتقل بالتدرج إلى موقف "متوازن"، هو الاعتراف الواقعي (de facto) بالدولة من دون منحها اعترافا حقوقيا (de jure) - أي رفض الاساس الايديولوجي للدولة والتعامل مع مؤسساتها في آن واحد. ويعتبر هذا الموقف عودة إلى مواقف الحاخام أبراهام يشعياهو كارليتير، الذي لم يساوي بين الدولة وظلمات المنفى، كما لم يرها خلاصا بالتأكيد وإنما رأى فيها أمرا إداريا تقنيا فقط يجب التعامل معه.^(١٢) وبموجب هذا الموقف، "لا توجد قيمة مستقلة مطلقة في التوراة إلا للرب تبارك اسمه وخدمة الرب. ان قيمة الدولة ومؤسساتها تقاس بمدى ما تقرب الشعب إلى الله والتوراة وفرائضها."^(١٣)

وبصورة عامة، لم يشارك حزب أغودات إسرائيل في الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة. لكنه شارك في الائتلافات ولجان الكنيست، وحاول

وبصورة عامة، لم يشارك حزب أغودات إسرائيل في الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة. لكنه شارك في الائتلافات ولجان الكنيست، وحاول الحصول على ميزانيات للمؤسسات الدينية والاجتماعية التي يربعاها. وانتقل حزب أغودات إسرائيل، فيما بعد، إلى المطالبة بمناصب مهمة في لجان الكنيست، ورأس لجنة المال عدة مرات. لكن، في الأعوام الاخيرة، ظهرت في إسرائيل احزاب ارثوذكسية دينية تنافس "أغودات إسرائيل" وتوافق على الانضمام حتى إلى الحكومة.

الانتقال من هامش الحياة السياسية إلى مركزها، كما يبدو، وإن كان بحاجة إلى موقف سياسي، يدفع في اتجاه تحقيق مصلحة سياسية؛ فان الوجود في مركز الحياة السياسية والاقتصادية يؤثر بنويها في الحركات السياسية ويؤدي في نهاية الامر إلى تكيفها الايديولوجي إزاء الواقع الجديد. والعمل داخل السلطة السياسية يعني التطلع في النهاية إلى المزيد من السلطة.

عندما نثار نقاش بين قيادة أغودات إسرائيل في فلسطين وقياداتها في الولايات المتحدة، التي عارضت الانضمام إلى الحكومة المؤقتة، كان تبرير القيادة المحلية لمشاركتها منطلقا من موقف الضعف، موقف الاقلية المضطربة إلى الانضمام إلى الحكومة لتأمين مصالحها - لكن التطور استبدل منطق الضعف بمنطق القوة، منطق السلطة والتأثير فيها فيما بعد، لا لتأمين الحريات الدينية وإنما من اجل فرض الشرائع الدينية على الحياة اليومية للأكثرية العلمانية. ومن اجل تأمين المصادر المالية لمؤسسات الحركات الدينية من مدارس دينية وجمعيات خيرية ومراكز صحية وغير ذلك.

^(١١) Friedman, "Israel as a Theological Dilemma...", op.cit., p. 95

^(١٢) ي. أ. وولف، "المرحلة وقضاياها" (بني براك، ١٩٨٣)، المجلد الاول، ص ١٥.

^(١٣) Ravitzky, "Exile in the Holy Land...", op.cit., p. 95

ظهور التطابق بين "ارض اسرائيل" و "دولة اسرائيل"

إذا وضعنا جانباً موقف "ناتوري كارتا" المثابر ضد وجود إسرائيل من منطلق ثيولوجي، فقد حدث بعد سنة ١٩٦٢ داخل التيارات الدينية الارثوذكسية استقطاب من نوع جديد لم نشهده من قبل، وإن كانت بدوره الفكرية موجودة. وقد تحول موقف أعودات إسرائيل، في سياق هذا الاستقطاب الجديد، إلى موقف وسطي يتعامل مع الدولة من أجل تأمين وتوسيع مصالح الفئات التي يمثلها الحزب. واحتلال أعودات إسرائيل موقعا وسطياً ناجماً عن تميز قوى قديمة بمواقف جديدة.

بعد احتلال ما تبقى من فلسطين في حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، طرأ تحول على مواقف معظم الاحزاب الدينية الصهيونية وغير الصهيونية من اعتبار هذه الحرب معجزة وإشارة ربانية إلى اعتبارها بداية الخلاص. وفي الأوساط الدينية غير الصهيونية انطلق الصوت الجديد من الولايات المتحدة موطن زعيم حركة "حabad"، الحاخام شينرسون، الملقب "الحاخام من لوبافتش".* ويتلخص الموقف الجديد بالقول أنه صحيح ان دولة إسرائيل بوصفها كيانا صهيونياً هي تعبير عن الكفر والتمرد على إرادة الله، ولذلك فهي بالتأكيد ليست تعبيراً عن الخلاص، لكن، ومن ناحية أخرى، فإن "ارض إسرائيل" بسيادة يهودية تنطوي على مغاز دينية ذات أهمية. ولذلك تدعو هذه الحركة إلى عدم

* توفي هذا الحاخام عام ١٩٩٤ تاركاً أتباعه في أزمة بعد أن أوشك ان يعين نفسه المسيح المنتظر - ولكن حركته مستمرة بالاندفاع نحو التحالف مع أكثر القوى اليمينية تطرفاً في المجتمع الإسرائيلي.

التنازل عن أي من الأراضي التي احتلت سنة ١٩٦٧، وذلك من منطلق أحكام الشريعة الدينية.

لقد تأثر هذا الموقف منذ البداية بما سماه "المعجزات والاشارات السماوية" التي تجلت بالانتصارات في الحروب المختلفة، وخصوصا حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٦٧. وقد اعتمد قسم من هذا التيار، في تأكيده عدم قدسية إسرائيل، على الفارق بين "دولة إسرائيل" و"أرض إسرائيل": فدولة إسرائيل حتى سنة ١٩٦٧ قامت على جزء من أرض إسرائيل، وعلى ذلك الجزء بالذات الذي لا يمثل مكانا مهما في التقاليد الدينية اليهودية. لكن، بعد احتلال سنة ١٩٦٧، زال الفارق عمليا، وأصبح هناك تطابق بين "أرض إسرائيل" وهي مفهوم ديني وبين "دولة إسرائيل" وهي مفهوم سياسي علماني، ووقعت الحجة القديمة في مأزق، وجد له حلا باقتراب اتباع هذا التيار بالتدرج من الأوساط اليمينية في إسرائيل، أو "لوبي أرض إسرائيل" كما تسمى هذه الأوساط نفسها. ومع أن اتباع حركة "حبايا" قاموا بدعم "أغودات إسرائيل" في انتخابات الكنيسست الاخيرة، إلا أنه تبين بعد الانتخابات ان مؤيدي "الحاخام من لوبافتش" غير مستعدين لدعم برنامج سلام "معراخي" يقوم على التنازل عن اقسام من "أرض إسرائيل". وقد تبذرت اوهام حزب العمل الإسرائيلي بشأن تأليف حكومة برناسته* بعد ان وصل رفض هذه الأوساط لمثل هذه الحكومة إلى حد الانشقاق عن "أغودات إسرائيل" ودعم حكومة برئاسة الليكود. ومع ان هذا التيار ما زال غير صهيوني بالمعنى التقليدي، إلا أن تحول "أرض إسرائيل" إلى قيمة دينية في نظره، جعله يقترب كثيرا من مواقف غوش إيمونيم.

* المقصود قبل انتخابات عام ١٩٩٢ وبعد حل حكومة التكتل الوطني.

أما التيار الثاني القديم الجديد، فهو التيار الذي تمثله المدارس الدينية الليتوانية بزعامة الحاخام اليعيزر مناحم شاخ، وهو الآن شخصية متميزة في عالم المتدينين اليهود. وقد ساهم الحاخام شاخ بعد انشاقه عن "مجلس كبار التوراة"، السلطة الروحية لأغودات إسرائيل، في إقامة حزبين هما: حركة "شاس" التي قاسمه زعامتها الروحية الحاخام الشرقي عوفاديا يوسف، وحركة "ديغل هتوراة" (علم التوراة) التي لا ينافسه أحد في زعامتها حتى اليوم. ولا يتسع المجال هنا للبحث في الوضع السياسي الجديد الذي نجم عن ولوج هذه الحركات صلب السياسة الإسرائيلية - ما يهمنا هنا هو التيار الفكري الذي يمثله الحاخام شاخ.

ينظر الحاخام شاخ إلى دولة إسرائيل نظرة براغماتية مغالية في براغماتيتها، لأنه ينزع أي قيمة مقدسة عن إسرائيل؛ فلا هي "بداية الخلاص" كما تعتقد غوش إيمونيم، ولا هي "مقدمة لبداية الخلاص" إذا أحسن استخدامهما"، كما تدعي أوساط من أغودات إسرائيل، وليست أرض إسرائيل مقدسة بحد ذاتها.

ويعتقد الحاخام شاخ بقدم المسيح، أي ان هنالك جانبا مسيانيا في تدينه. إلا انه لا يرى أي عنصر مسياني في الواقع، فالواقع التاريخي يتطور بموجب منطقته الداخلي. والتوراة حافظت على الشعب اليهودي "ألوف السنين، فهل نستبدلها بشيء آخر، بماذا؟"^(١٤) التوراة هي التي تحافظ على شعب إسرائيل، لا الدولة.

ينقسم العالم، في نظر الحاخام شاخ، إلى يهود وغير يهود (الأمم). والمقولة التلمودية والتوراتية: "عليك الا تعجل النهاية وألا تتمرد ضد الأمم"

(١٤) شاخ، "رسائل ومقالات"، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤.

تحمل، لدى هذا التيار، معاني محددة. فالتمرد ضد الأمم لا يعني ان على اليهود البقاء في مناهم الجغرافي وألا يقيموا دولة يهودية، بل يعني ان تتعامل إسرائيل بحذر مع الدول العظمى ومع العرب، وعليها ان تكون مستعدة لتقديم تنازلات من اجل السلام، وهذا موقف يتبناه بشكل اكثر حدة الحاخام عوفاديا يوسف الذي يدعو إلى تفضيل "سلامة اليهود على سلامة أرض إسرائيل". لكن، ومن ناحية أخرى، فان الحاخام شاخ يطرح امام الصهيونية تحديا جديدا هو وطنية يهودية تنظر إلى غير اليهود بريبة وحذر. فالصهيونية تحاول تحويل اليهود إلى امة كباقي الامم، لكنهم ليسوا كذلك. فالأمم تترقب الفرصة للانقضاض على اليهود: "من البديهي ان يكره عيسى يعقوب."^(١٥) وعلى اليهود ان يفوتوا الفرصة إلى غير اليهود - عليهم إذا ان يتصرفوا بحكمة وحذر وان يتقنوا اجراء الحلول الوسط.

تثير مواقف الحاخام شاخ في إسرائيل اهتماما واسعا لانه المرشد الروحي لاحزاب دينية ترجح كفة هذا الائتلاف الوزاري على ذلك. وقد طرأ تحول جذري على مواقفه من المشاركة في الحكومات الإسرائيلية، من الرفض العام لهذه المشاركة عندما تزعم تيارا معارضا في "مجلس كبار التوراة". ففي سنة ١٩٦٥ حمل شاخ بشدة على الحزب القومي الديني (المفدال) لانه يشارك في الحكومات الإسرائيلية: "ليست الدولة دولة شريعة بل دولة القانون (العلماني)... ولهذا الدولة يتنازلون، وفيها يشاركون في تحمل المسؤولية... إلى أين سيقود كل هذا؟"^(١٦)

(١٥) مقولة من "المدرش".

(١٦) شاخ، "رسائل ومقالات"، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.

فيما عدا "ناتوري كارتا"، المعادية للصهيونية ولوجود الدولة، ينقسم التدين التقليدي الارثوذكسي (haredi) إلى ثلاثة تيارات أساسية، يجمعها العداء للطبيعة العلمانية للدولة واعتبار إسرائيل نوعا من انواع المنفى. والمقصود بالمنفى في هذه الحالة ليس بعدا جغرافيا، بل هو بعد روحي، أي ان المصطلح ليس مصطلحا سياسيا بل ثيولوجي ميتافيزيقي لا يغيره نيل الاستقلال؛ كل واقع غير مسياني هو منفي. لكن هذه التيارات اختلفت فيما بينها في مواقف تتدرج من التعايش مع دولة إسرائيل كدولة غريبة، يجب التعامل معها كما تتعامل "الجاليات" اليهودية مع الدول الأجنبية، إلى إضفاء صبغة دينية محدودة على دولة إسرائيل، كون قيامها كان نوعا من أنواع العناية الالهية لاتخاذ أرواح اليهود، رافقته معجزات متكررة أهمها الانتصار في الحرب سنة ١٩٦٧. كما تضي اوساط من هذه التيارات صبغة القدسية على الوجود اليهودي على أرض إسرائيل، وذلك بصورة مجردة من دون دخول نقاش في شأن وجوب او عدم وجوب الاستيطان كفريضة يهودية دينية، وهي نقاشات تدور في الأوساط الدينية الصهيونية.

لم يتبادر إلى أذهان ممثلي هذه التيارات، في يوم من الايام، وهم تحويل إسرائيل إلى دولة شريعة، لأن دولة الشريعة الدينية ستقوم بمجي المخلص المسيا. لكنهم يطالبون بأن تحترم الدولة الشريعة الدينية، ويحاولون استغلال الدولة لدعم مشاريعهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية. الغريب أن القوى الدينية، التي وضعت نصب اعينها تحويل إسرائيل إلى دولة شريعة، هي القوى الدينية الصهيونية^(١٧) التي اخذت طابعا "معتدلا" في العقود الاولى لقيام الدولة. لكن إذا أمعنا النظر جيدا نصل إلى خلاصة مفادها انه من المنطقي ان

(١٧) Friedman, "Israel as a Theological Dilemma..." op.cit., p. 174

الصهيونية الدينية والحركات السلفية

بدأت الصهيونية الدينية لدى نشأتها ذات طابع وسطي توفيقى. فقد حاولت ان تجمع بين الدين والصهيونية في تيار واحد، من دون ان تخلط بينهما. فالصهوني يستطيع ان يكون متدينا والمتدين صهونيا، من دون ان تكون للصهيونية قيمة دينية^(١٨). ووجدت هذه الدعوة آذانا صاغية لدى اوساط "الارثوذكسيين الجدد" في أوروبا الشرقية، حتى تأسست حركة "همزراحي" (المركز الروحي) بقيادة الحاخام راينس، كجناح ديني داخل المنظمة الصهيونية العالمية سنة ١٩٠١. ويعتبر الحزب القومي الديني (المفدال) استمرارا لهذه الحركة.

كان لا بد للحركة التي وحدت الصهيونية والدين بصورة واعية، من ان تخلط مع الوقت بينهما؛ ذلك بأن الصهيونية لم تفصل أصلا الانتماء الديني عن الانتماء القومي. ولقد حدث ذلك خاصة في أكثر الاوساط "طلانعية" في هذه الحركة، أي تلك التي مارست الاستيطان مباشرة، بمعنى أنها مارست الصهيونية بشكلها المكثف، وأقامت حركة "هبوعيل همزراحي" سنة ١٩٢٢ التي اقامت بدورها الكيبوتسات الدينية.

لم يكن الجناح الديني في الحركة الصهيونية ذا أهمية تذكر في البداية؛ فقد حورب بشدة من قبل الاوساط الدينية غير الصهيونية، ونظر اليه العلمانيون الصهونيون نظرة ازدراء لانه ذكرهم بالجانب الديني لليهودية،

(١٨) ما زال العديد من المتدينين الصهونيين يؤمنون بإمكان الفصل بين انتمائهم إلى الصهيونية باعتبارها حركة قومية، وبين تدينهم على اعتبار انه خيار ذاتي إيماني.

تطرح الصهيونية الدينية بالذات مثل هذه المهمات، لأن الدولة بالنسبة اليها هي مقدمة مجيء المخلص وللدولة معان دينية مسيانية. ولذلك فمن الاصح إطلاق اسم السلفية على الحركات الصهيونية الدينية التي تتوق إلى إعادة ربط الدين بالدولة فعليا وواقعا وليس جوهريا فقط، في حين لا يصح إطلاق تسمية السلفية على الحركات الدينية التقليدية، لأنها لم تمر اصلا بعملية علمنة. السلفية هي نتاج الفصل بين الدين والدولة. والدين والدولة لم ينفصلا بالنسبة الى هذه الحركات الاخيرة التي ما زالت تنتظر وحدتهما في نهاية التاريخ عند قيام الدولة اليهودية بقدوم المخلص. أما دولة إسرائيل فليست دولة يهودية، وإنما دولة اليهود.

ننتقل إذا إلى معالجة موضوع الصهيونية الدينية التي وصلت في تطورها، وخصوصا بعد سنة ١٩٦٢، إلى إنجاب الحركات السلفية المتطرفة التي تلتقي، كما هو مبين في مقدمة هذا البحث، مع القومية الإسرائيلية العلمانية المتطرفة.

ذلك الجانب الذي يعيد إلى الأذهان حياة الذل في "الشتات" - فهم طلائعيو حركة قومية علمانية اوروية جاءت كي تنفي المنفى. وقد تغير هذا الموقف النخبوي بالتدرج مع الهجرة المكثفة الجماهيرية غير الطلائعية إلى فلسطين في أعقاب الكارثة، وفيما بعد في إثر تضعف الاوتوبيا الاشتراكية لحركة العمل الصهيونية. لكن نقطة التحول الاساسية كانت الانتصار "المعجزة" سنة ١٩٦٧.

حركة المتدينين الصهيونيين هي الحركة التي استوعبت في داخلها صراع النقائص بين التدين والعلمانية في الصهيونية، ليتحول إلى توتر داخلي في الحركة نفسها. وكتب الحاخام راينس، مؤسس "همزراحي"، سنة ١٨٩٩ عن الفكرة الصهيونية: "هذه الفكرة لا تحمل أي حرف من فكرة الخلاص ولا تمس أي شيء له علاقة بها"^(١٩) لكن الشخص نفسه الذي يحاول ان يفصل بين الامرين عاد فانبر من التماس "الغريب" بين الصهيونية والرؤيا المسمانية ("جمع الشتات" التحرر من "ملكوت الاغيار"، اثمار اشجار اسرائيل، وغير ذلك من مظاهر قدوم المسيا) التي تحققت في إسرائيل^(٢٠). وقد جمعت هذه الحركة كل تناقضات الحركة الصهيونية؛ فالى جانب صراعاها مع المتدينين غير الصهيونيين من جهة، ومع العلمانيين الصهيونيين من جهة اخرى، جاء صراعاها الداخلي بين المفاهيم العلمانية للدولة التي تستمد سلطتها من إرادة الشعب وبين الشريعة كمفهوم ديني يستمد معانيه من إرادة الله والتوراة، بين البعد الثيولوجي المسماني للدولة وبين البعد العلماني الدنيوي.

انفجرت هذه المتناقضات بعد حرب ١٩٦٧، التي أكدت البعد الثيولوجي الميتافيزيقي للدولة اليهودية بالنسبة إلى المتدينين اليهود. وقد

(١٩) الحاخام راينس، "نور وفرح" (فلنا، ١٨٩٩)، ص ١٢-١٣.

(٢٠) الحاخام راينس، "نور جديد على صهيون"، ص ٣٥٢.

تجسد هذا الانفجار في النشاط السياسي لشبان حركة "بني عكيفا" الذين تربوا على قيم العمل العبري والاستيطان جنبا إلى جنب مع القيم الدينية اليهودية. وكان خريجو حركة بني عكيفا يجدون موقفهم الطبيعي في حزب المفدال. لكن، وبعد حرب ١٩٦٧، بدأت توفيقية هذا الحزب تظهر كتوفيقية مصطنعة، وبدأ اندماج هذا الحزب في الائتلافات مع حزب العمل يثير لديهم النفور.

غير ان ثورة الشباب في حزب المفدال لم تأت في الحال بفكر ديني جديد. فعندما نشبت الازمة كان الفكر الديني الذي يعبر عن البعد الديني للحركة الصهيونية، ويرفض اعتبار التدين والصهيونية امرين منفصلين، كان هذا الفكر جاهزا على شكل منظومة غيبية متكاملة نظر لها، منذ زمن بعيد، الحاخام كوك من مدرسته الدينية المدعوة "مركز هراب" في القدس.

التدين والصهيونية

انتشر دعاة هذا التيار منذ نهاية القرن الماضي بين "الجاليات" اليهودية في شرق أوروبا، وكان من أبرزهم الحاخام كاليشر والحاخام يهودا أتلعي^(٢١). لكن أبرز وأشهر ممثلي هذا التيار كان الحاخام أبراهام يهودا خليفي كوك الذي يعتبر ابنه ومكمل طريقه الحاخام تسفي يهودا كوك، الاب الروحي لحركة "غوش إيمونيم".

يشكل فكر الحاخام كوك انعكاسا دينيا واعيا للفكرة الصهيونية. فالرؤيا المسيانية والخلاص ليسا منافيين لحركة التاريخ في نظره، بل هما جوهر الحركة التاريخية ذاتها. وخطة الحركة التاريخية مقررة سلفا، وهي تتجه نحو الخلاص وقدام المسيا.

الصهيونية هي استجابة لنداء الرب^(٢٢). بل هي الإرادة الالهية نفسها وقد تجسدت على شكل حركة علمانية - والعلمانيون الصهيونيون ينفذون إرادة الله من دون ان يدركوا ذلك في وعيهم الذاتي: "فان ما يريدونه لا يعلمونه هم انفسهم."^(٢٣)

بذلك حل الحاخام كوك تناقضات التيار الصهيوني الديني كما بدا لشبان حركة "بني عكيفا" وحزب المفدال، ورد بشدة على انتقادات اليهود الارثوذكس ضد التعاون مع العلمانيين، مبينا ان من الضروري التمييز بين

(٢١) راجع: ي. كاس، "القومية اليهودية - مقالات وبحاث" (القدس، ١٩٧٧)، ص ٢٨٥-٣٥٧.

(٢٢) أ.ي. هكوهين كوك، "رؤيا الخلاص" (القدس: مؤسسة الحاخام كوك، ١٩٠١).

(٢٣) أ.ي. هكوهين كوك، "أضواء" (القدس: مؤسسة الحاخام كوك، ١٩٢٣).

الارادة والرغبة الذاتية للفرد الفاعل في التاريخ وبين النتائج الموضوعية لأعماله. ان الصهيونيين وإن أرادوا مشروعاً علمانيا قومياً فإنهم أدوات في يد لئله يصنع بهم الخلاص لشعبه.

ان افكار الحاخام كوك، مثل غيرها من الأفكار الغيبية، ترى في الواقع المادي الملموس فكرة، بل خطة ميتافيزيقية تخلط الدين والسياسة والاخلاق بحركة الواقع ذاتها، متحولة إلى ايدولوجيا متكاملة تبرز فيها "ارض إسرائيل" والاستيطان، والزي العسكري فيما مقدسة في خطة ربانية - والغريب، كما قلت في البداية، أنها القيم المقدسة نفسها لدى المتطرفين الصهيونيين العلمانيين في معسكر اليمين الاسرائيلي. السلفية الدينية والتطرف القومي يلتقيان (في حين يتصارع التياران في العالم العربي مثلاً).

ان الشعب اليهودي لا ينتظر الخلاص وإنما ينفذ هذه العملية في دولته. "وعندما نسال إذا كانت الامة تمر بمرحلة الخلاص فان الاجابة لا تحتل تفسيرين: الشعب اليهودي موجود الآن في خضم عملية الخلاص"^(٢٤) هذا هو التحليل الذي تبناه تسفي يهودا كوك ابن الحاخام كوك والذي تحولت فتاواه الدينية إلى أوامر وقوانين بالنسبة إلى حركة غوش إيمونيم التي تأسست سنة ١٩٧٤. لقد اصدر هذا الحاخام نداء مشهوراً بعدم نسيان القدس ونابلس والخليل قبل ٢٦ يوماً من نشوب حرب الايام الستة. وتحول هذا النداء إلى نبوءة بالنسبة إلى مؤيديه الشباب.

^(٢٤) Friedman, "Israel as a Theological Dilemma..." op.cit., p. 206

الأيدولوجيا الدينية الغيبية و "أرض إسرائيل"

تأسست حركة "غوش إيمونيم" رسمياً في نهاية شتاء سنة ١٩٧٤، على شكل تمرد داخل حزب المفدال الذي وافق على الانضمام إلى حكومة رابين الائتلافية، وهي حكومة فصل القوات مع مصر وسوريا، والاستعداد للحلول الوسط في قضية الاراضي المحتلة. لكن تأسيس الحركة الفعلي كان بعد حرب حزيران/يونيو، وأواخر صيف سنة ١٩٦٧، وذلك على شكل مؤتمر خريجي مدرسة "مركز هراب". وقد وجه المؤتمر ثلاثة أسئلة إلى الحاضرين والقضاة اليهود:

هل يسمح، وفق تعاليم التوراة، بالتخلي عن "مناطق محررة من أرض إسرائيل"؟

هل يسمح بالتخلي عن مناطق محتلة خوفاً من إستيعاب عدد كبير من العرب داخل حدود دولة إسرائيل؟

هل يجب ان يرغمنا الضغط الدولي على الانسحاب؟

كما نلاحظ، فان الاسئلة الثلاث هي الاسئلة ذاتها التي تطرح يومياً في الشارع الإسرائيلي. لكن الجديد في الامر هو: (١) ان الاسئلة صيغت صياغة دينية. (٢) انها طرحت للحسم بموجب الشريعة اليهودية، لا بموجب موازين القوى والمصالح السياسية وغيرها من الاعتبارات. [رأينا لاحقاً أن ما بدأ كاجابة عن اسئلة دينية تحول مع الوقت إلى فتاوى دينية مباشرة من الحاخاميين المؤيدين للاستيطان والمعارضين حالياً لعملية السلام الجارية. فقد صدرت مثلاً فتوى موقعة بيد "حاخامي يهودا والسامرة" تنهى الجنود عن طاعة

أي أوامر تصدر باخلاء المستوطنات في المستقبل. كما صدرت عدة فتاوى فردية كما يبدو تحلل قتل رايبين لأنه سلم اجزاء من ارض إسرائيل للاغيار او لأنه عرض حياة اليهود للخطر.

عاش الدين حتى ذلك الحين جنباً إلى جنب مع السياسة، تاركاً تصريف الشؤون السياسية للسياسيين. وكان رجل المفدال يتحول إلى سياسي علماني عندما يبت في مثل هذه المسائل، ثم يعود فيلبس ثوب الدين عند بت المسائل الدينية. واقعان منفصلان في عالم نشيطي حزب المفدال. لكن الوضع اختلف جذريا عندما بدأت الاسئلة السياسية تصاغ بلغة دينية، ولا توجه إلى الكنيسة والحكومة والصحافة والرأي العام، بل توجه إلى الحاخاميين والقضاة المنشغلين حتى الآن بقضايا الاحوال الشخصية التي أفردتها لهم القانون الإسرائيلي.

زودت الايديولوجيا الدينية الغيبية اتباعها بسلاح جديد لفهم الواقع: فاذا كانت حرب ١٩٦٧ بداية الخلاص المرتقب وتحقيق النبوءة، فان حرب ١٩٧٣، ازاحت عن كاهل الحركات الدينية الارثوذكسية عبء المعجزات التي تحققت إسرائيل منذ قيامها. ان هذه الحرب بالنسبة إلى خريجي "بني عكيفا" ومدرسة "مركز هراب" تعبر عن آلام المخاض التي تسبق قدوم المسيا. كل شيء يجد مكانه الطبيعي في الايديولوجيا المتكاملة، ولا مكان للشذوذ. وقدوم المسيا الذي تختلف في شأنه التفسيرات اللاهوتية في التيارات الدينية المختلفة، يعني بالنسبة اليهم امرا واحدا: إقامة ملكوت إسرائيل. ولذلك فان هم الحركة الاول والاخير هو الموضوعات المتعلقة بـ "ارض إسرائيل"، وتتحول

الشرعية الدينية إلى ايديولوجيا تبريرية لأغراض الاحتفاظ بـ "ارض إسرائيل".^(٢٥)

يستند نشيطو حركة غوش إيمونيم إلى مصادر ايديولوجية محددة، وإن كانوا لا يرغمون مؤيديهم على تبنيها؛ فالحركة ليست حزبا وإنما حركة شعبية غير ملتزمة إلا بالمحافظة على "ارض إسرائيل". لكن لهذه الحركة نواة ايديولوجية قومية تستند إلى التراث الديني اليهودي ومصادر علمانية عديدة، قسم منها في حركة العمل الصهيونية وقسم آخر في الحركة الصهيونية التصحيحية (Revisionist Zionism)، لكن نواتها الايديولوجية لم تعد مدرسة لاهوتية تفسيرية كالتي اسسها الحاخام كوكث. أنها حركة سياسية (مثل كل الحركات السلفية) تقتبس من التراث الديني ما يخدم أهدافها السياسية. وتشكيل فلسفة أو مدرسة دينية متكاملة يضيف قطبا جديدا إلى حلبة الصراع الفكري، لكن الحركات السلفية ليست مدارس دينية أو فلسفية؛ فكل الدين، وكل الفلسفة، وكل التراث، هي بالنسبة إليها ايديولوجية تقتبس منها اقتباسا انتقائيا. الفلسفة والتراث كنزان للاقتباسات والتبريرات الايديولوجية. علينا أن نضيف في هذا السياق أن العملية الجارية في اوساط المتدينين اليهود آخذة بتقريب جناحي المتدينين الاساسيين: المتدينين القوميين والمتدينين الارثوذكس. فالمتدينون القوميون وعلى رأسهم القوى التي يمثلها "غوش إيمونيم" يتوجهون أكثر فأكثر نحو الشريعة الدينية أي يمرون بعملية تزمّت ديني أكثر من السابق. في حين يتجه اليهود الارثوذكس إلى تفهم أكثر فأكثر للصهيونية. بل ونراهم يشاركون في مظاهرات لليمين. ولم تكن تشهد في الماضي مشاركة فعالة لتلاميذ المدارس الدينية الارثوذكسية في عمليات

(٢٥) داني روينشاكين، "غوش إيمونيم" (الكيبوتس الموحد، ١٩٨٢)، ص ٥.

الاعتداء على العرب خاصة بعد العمليات المسلحة التي يقوم بها فلسطينيون، ولكنه مشهد مألوف في هذه الايام. اليهود الارثوذكس يمرون بعملية صهيئة فيما يمر المتدينون القوميون بعملية تزمّت ديني - واقتصد بالطبع التيارات الرئيسية في كل منهما.

هكذا تستل الفتاوى من "الرامبام" الذي عاش في القدس ضمن جالية يهودية من ثلاثة اشخاص في نهاية القرن الثالث عشر، او من "الرامبام" الذي سبقه بثلاثين عاما. ويتحول لله الحائز على عدة اسماء في الديانة اليهودية، منها "السلام"، إلى "رب الجنود" و"رب الانتقام" و"رب مقاتل" - وهي أسماء أخرى للاله نفسه عند العبرانيين القدماء. وهكذا أيضا يصبح من الممكن المرور من الكرام بالنبوءة الكونية للنبي أشعيا بشأن السلام، للحديث عن السلام الواحد والوحيد، السلام الداخلي لشعب إسرائيل - وهو مجرد حلقة وصل بين حربين يخوضهما شعب إسرائيل مع الامم الأخرى، كما يقول الحاخام ليفنغر: "السلام ليس هدفا بحد ذاته، انه أداة مهمة لتنظيم الحياة وتحقيق الرؤيا. ان تقدم شعب إسرائيل وعملية الخلاص لشعب وأرض إسرائيل هما أكثر أهمية من هذا السلام المزعوم. عندما نحقق هذين الهدفين سيكون بطبيعة الحال سلام لكل العالم."^(٢٦)

الخاتمة

قال حاييم وايزمن القائد الصهيوني العلماني، امام المؤتمر الصهيوني العشرين سنة ١٩٣٧: "لقد وعد الله اليهود بمنحهم ارض إسرائيل، هذا الوعد هو وثيقتنا الأكثر أهمية." وأمام اللجنة الملكية البريطانية سنة ١٩٣٩: "لا نكتسب حقنا على أرض إسرائيل من الانتداب البريطاني بل من التوراة."^(٢٧) وقد اوردت هذين الاقتباسين كي نعود إلى بداية بحثنا في فصل المقال ما بين الدين والدولة في إسرائيل من اتصال. ان السلفية الدينية تدعي ان الحركة الصهيونية تنفذ فكرة الخلاص المسيانية الموضوعية، من دون ان ينفذ ذلك إلى وعيها الذاتي؛ فالحركة السلفية إذا تجسد وعي الحركة الصهيونية لذاتها، التحام الذات بالموضوع إذا أردنا استخدام مصطلح فلسفي هيغلي.

لم تنشأ الصهيونية عن حركة التنوير الأوروبية وإنما من الممكن اعتبارها ردة فعل على حركة التنوير مثل بقية الحركات القومية الرومانسية في القرن التاسع عشر. لكن مأساتها انها برودة فعلها التي نجحت تاريخيا بفعل عوامل اوروبية في الأساس، لم تنجح في تشييد صرح امة يهودية منفصلة عن الطائفة اليهودية. وما زال المؤرخون اليهود الصهيونيون يحاولون من منطلقات علمانية إقامة أساس غير ديني لأمة يهودية فوق التاريخ والجغرافيا. لكنهم جميعا، وفي مقدمتهم المؤرخ الكبير يعقوب كاتس، لم يستطيعوا تزويدنا بأي تعريف يفصل ما بين الانتماء إلى الطائفة والانتماء إلى الأمة، هذا عدا الرموز الدينية التي استخدمت للتعبير عن الصلة التاريخية بأرض إسرائيل. وهنالك

^(٢٧) وردت الاقتباسات في كتاب لسفي رعنان، "عوش ايمونيم" (هشومير هتسع، ١٩٨٠) ص ٨.

^(٢٦) M. Kohn, "Who's Afraid of Gush Emunim?" (Jeusalem, 1978), p. 34

في إسرائيل جمعية تسمى نفسها "الجمعية ليهودية إنسانية علمانية"، وهي تبدل جهدا خاصا لفصل اليهودية كقومية عن اليهودية كدين، وذلك باعتماد المميزات الحضارية اليهودية. لكن، هل في الامكان الحديث عن مميزات يهودية حضارية موحدة في كل انحاء العالم تصنع تاريخا موحدا لشعب واحد؟ لا توجد إجابة عن هذا السؤال.

ان اللقاء الذي اشرت اليه سابقا بين مصطلحات الحركة الدينية الصهيونية المتطرفة وبين الحركة الصهيونية المتطرفة في هامشها اليميني، لا يعني انه ليس هناك صراعات بشأن الطابع العلماني للحياة اليومية في إسرائيل او بين المتدينين والعلمانيين. وإنما قصدت التركيز على اللقاء بين الأوساط المتطرفة من العلمانيين والمتدينين لأثبت ان المفاهيم الإسرائيلية لعلاقة الأمة، والدولة، والدين... إلخ، لم تمر عمليا بعملية علمنة.

عندما قامت في إسرائيل فعلا وحدة حضارية محددة بمميزات موضوعية واضحة، مثل اللغة وغيرها، نشأت هذه الوحدة المتميزة من بقية الجالية اليهودية - لكن الأمر الخاص والتميز في حالة إسرائيل هو رفض الايديولوجية والمؤسسة الرسمية نفسها الاعتراف بوجود امة إسرائيلية، وإصرارهما على تمثيل إسرائيل لـ "أمة يهودية" في أنحاء العالم كافة بشكل يشابه إصرار إيران على تمثيل "أمة إسلامية" في أنحاء العالم كافة.

سأنهي هذه المقالة باقتباسين أحدهما من مؤرخ متنور والثاني من احد مفكري حركة غوش ايمونيم. وكلا الاقتباسين يتناول جوهر الصهيونية: يقول كاتس: "في الصهيونية اتخد الايمان المسياني شكلا جديدا، بعد ان تنقى من بقية عناصره الغيبية، وحافظ على أهدافه الاجتماعية والسياسية وعلى أهدافه الروحانية إلى حد ما. لكن حتى في هذه المرحلة من التطور اعتمدت

القومية الحديثة اعتمادا كبيرا على المسيانية القديمة التي مدتها بجزء مهم من قوتها الايديولوجية والعاطفية..."^(٢٨)

أما البروفسور هارنيل فش فيقول: "ان اساس صلة شعب إسرائيل الايديولوجية بالتقاليد الغربية الليبرالية هو سوء فهم وخطأ. فمن الممكن جزئيا فقط اعتبار الصهيونية وليدا لحركة التنوير الأوروبية، لكن أساسها الحقيقي في الميثولوجيا اليهودية.. ما حدث في القرن التاسع عشر كان خداعا لغويا، او على الأصح خداعا لغويا ذاتيا؛ فقد عرضت الصهيونية كأنها حركة توازي حركات التحرر الوطني..."^(٢٩)

فما الفارق الجوهرى بين العلماني المتنور والغبي المتعصب عند مناقشة موضوع علاقة الامة بالدين؟

^(٢٨) كاتس، "القومية اليهودية.."، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.

^(٢٩) H. Fisch, The Zionist Revolution (London, 1978), p. 28

يتوجه مركز الدراسات الاستراتيجية بالجامعة الأردنية بالشكر للزملاء في مركز دراسات المجتمع العربي في إسرائيل على تعاونهم المثمر الذي تجسد في منح مركزنا حق نشر هذه الدراسة في العالم العربي، التي كانت قد نشرت في: "عادل مناع وعزمي بشارة (محرران)، دراسات في المجتمع الإسرائيلي، كانون الأول، ١٩٩٥"، والى مؤسسة فريدريش ايبرت الألمانية على تفضلهم بتحمل تكاليف طباعة هذه السلسلة.